# نحو مؤلفات قيادية في العلوم والقضايا الإسلامية

يشكو كثير من أهل العلم والفكر والثقافة مما يسود المكتبة العربية الإسلامية من عشوائية وضحالة وغثائية . ولا يُستثنى من هذا الواقع سوى عدد قليل من إصدارات بعض المؤلفين وبعضِ دور النشر أو بعض المؤسسات الرسالية . وحتى هذه الاستثناءات التي تقدم لمكتبتنا شيئا من الجدة والجودة غالبا ما يعَوَّل فيها على المبادرات والجهود الفردية للمؤلفين والمحققين والمترجمين . ومن هنا يبقى أثرها محدودا ويبقى عددها مغمورا ، ضمن الكثرة الكاثرة مما تخرجه لنا المطابع ودور النشر والتوزيع .

وعلى العموم فالكتاب العربي الإسلامي في أغلب أحواله ، وفي أحسن أحواله ، ينحصر أثره في سد الفراغ وتلبية بعض الاحتياجات العلمية والعملية والثقافية والاجتماعية لعموم القراء والمثقفين المتدينين ، ولبعض الطلبة والباحثين المتخصصين . وبعض هذه الكتب والكتابات قد تقوم بصفة خاصة بدور الإسناد والتوجيه المذهبي للجهات التي تنبع عنها وتدور في فلكها ، من حكومات وأحزاب وحركات إسلامية أو قومية .

أما الدور القيادي الطليعي في تجديد الصرح العلمي للأمة الإسلامية ، وفي إحداث إصلاحٍ وبناء فكري منهجي ، وفي توجيه

الأمة والنخب الفاعلة فيها نحو النهضة والريادة الحضارية ، وفي صياغة الحلول والمشاريع النهضوية ، وإزاحة العوائق والإشكالات العلمية والفكرية التي تعترضها ... فهذا كله يبدو كأنه غير وارد ، أو غير ممكن ، في الأفق المنظور وعلى النحو الذي تسير عليه الأمور .

ولكن لا بد مما ليس منه بد .

فنحن أمة (اقرأ) ، ونحن أمة (الكتاب) ؛ معجزة نبينا كتاب ، وديننا كتاب وحكمة .

خاصيتنا وميزتنا وقيادتنا ليست في قوتنا الاقتصادية ، وليست في مواردنا الطبيعية ، وليست في قدراتنا الجهادية القتالية ، أو تضحياتنا الحركية والمالية .

وإنما خاصيتنا مبدؤها وأساسها وميزتها القراءة والعلم ، والحكمة والفكر . وما سوى ذلك فهي توابع ووسائل ومكملات . وقال الإمام البخاري : « باب العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، فبدأ بالعلم ...» .

فإذا لم تكن ـ فعلا ـ خاصيتنا علمية ، ولم تكن رسالتنا علمية ، ولم تكن نهضتنا علمية ، ولم تكن حضارتنا علمية ، فقد حِدْنا عن الطريق الصحيح .

فلا بد إذًا مما ليس منه بد ، وهو اتخاذ العلم والعمل العلمي إماما ، واتخاذ الكتاب إماما ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود:١٧] .

فسنة الله تعالى إنزال الكتب . وسنة الأنبياء تبليغ الكتب وإمامة الناس بالكتب . ووظيفة العلماء والمفكرين ترسيخ الإمامة والقيادة للكتاب الإمام ، ثم ترسيخ ثقافة الكتاب وإمامةِ الكتاب والعلم بصفة عامة . وظيفة العلماء والمفكرين إنتاج الكتب القيادية الهادية لمختلف الأزمنة والأجيال ، بحسب المشكلات والحاجات والإمكانات القائمة في كل زمان .

وليس صحيحا ما قاله الشاعر أبو تمام :

**السيف أصدق إنباء من الكتب**

**في حده الحد بين الجد واللعبِ**

**بِيضُ الصفائح لَا سُود الصحائف في**

**متونهن جَلاء الشك والريبِ**

بل نقول : الكتاب أصدق قيلا وأقوم سبيلا ، والصحائف مقدمة على الصفائح وحاكمة عليها .

والله ﷻ قال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] ، فالأساس والعمدة في دين الله وشرعه : الكتاب والميزان والبينات ، أي : الكتاب ومنهج الكتاب .

ثم بعد ذلك أضاف سبحانه نعمة أخرى ، وهي لجميع خلقه ، فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ .

فالعلم إمام العمل وقائده ، فلذلك نحتاج إلى الكتب القيادية في كافة المجالات الحيوية .

ولقد عرف تاريخنا المديد مؤلفات قيادية نموذجية في مختلف العلوم والتخصصات ، جاءت في لحظتها وعند مسيس الحاجة إليها ، فقادت حركة العلم والفكر ، ومن خلالها وجهت حركة الأمة والمجتمع ، وشكل بعضها محطات ومنعطفات علمية نوعية ؛ نذكر منها على سبيل المثال :

كتاب (الموطأ) للإمام مالك ، و(الجامع الصحيح) للإمام البخاري . وهما الكتابان النموذجيان المؤسسان والقائدان لما جاء بعدهما في مجال علوم الحديث وتدوين السنة .

وكتاب (الرسالة) وكتاب (الأم) للإمام الشافعي ، وهما كتابان نموذجيان قائدان للحركة الفقهية الأصولية وللعقلية الفقهية الأصولية على مر العصور .

و(جامع البيان) للإمام الطبري ...وهو الكتاب المؤسس والموجه لعلوم القرآن والتفسير ، من يومه وإلى الآن . فضلا عن إسهامه ومرجعيته في تأسيس علوم الفقه والأصول واللغة .

كتاب (المقدمة) للعلامة عبد الرحمن بن خلدون . وهو الكتاب الذي طارت شهرته وسمت مكانته شرقا وغربا ، قديما وحديثا ، واعتبر ريادياً في مجال العلوم والدراسات التاريخية والاجتماعية والحضارية .

وبعض تلك المؤلفات لم يكن لها الأثر الفوري والمباشر ، لأن أهل زمانها غفلوا عن قيمتها ، أو لم يكونوا مهيئين للاستفادة منها ، ولكنها سرعان ما عادت فأدت رسالتها وأحدثت أثرها الكبير ، بعد زمن أو أزمان من تأليفها ؛ ككُتب ابن تيمية وابن القيم ، وكتب ابن عبد السلام ، وكتاب (المقدمة) لابن خلدون ، وكتاب (الموافقات) للشاطبي .

وفي العصر الحديث شكلت (مجلة الأحكام العدلية) وقواعدُها ، عملا تجديديا قياديا ، كان له عميق الأثر في مجال الفقه والقواعد الفقهية .

كما شكل كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية) للعلامة ابن عاشور أساسا ومنطلقا ومحورا لتأسيس علم مقاصد الشريعة ، بكل آثاره وثماره الحميدة الجارية اليوم .

**المؤلفات القيادية ـ سواء منها تلك المتقدمة الموجودة ، أو هذه المطلوبة المنشودة ـ عادة ما تنبثق عن أحد أمرين ، أو عنهما معا :**

١ـ أن تأتي نتيجة وعيِ المؤلفين ومعاناتهم ورؤيتهم لما عليه حال الأمة ومشكلاتها ومتطلباتها ، وسعيِهِم لتقديم عمل علمي يلبي المتطلبات ويسد الثغرات .

٢ـ أن تأتي استجابة لرغبة وطلب ورجاء ، يقدمه للعالم بعضُ من تلاميذه أو أصدقائه أو ولاة زمانه ، أو غيرهم ممن يدركون المطلوب ، فيرشحون له من هو أهل للنهوض به .

ما أعنيه الآن أكثر ، هو الصنف الثاني من هذه المؤلفات ، أما الصنف الأول فيرجع إلى مبادرة أصحابه ، كثرهم الله ووفقهم .

الصنف الثاني من المؤلفات القيادية يعتمد على إدراك القضية وتصورها ، ثم إعداد الفكرة وتحديد المطلوب فيها والغرض منها ، ثم التوجه بذلك إلى ذوي الاختصاص والأهلية من العلماء والمفكرين ، رجاء قيامهم بالإنجاز . وقد يكون هذا الإنجاز فرديا وقد يكون جماعيا . ولكل منهما مزاياه ومحاذيره . وقد يكون حجم الكتاب أو المشروع ، أو طبيعته والغرض منه ، هو الذي يرجح الإنجاز الفردي أو الجماعي . على أن الإنجاز الفردي في حال اعتماده ، لا بد وأن يكون محفوفا ومعززا بفكر جماعي ، يتمثل في التحضير والتشاور والتقويم والتحكيم .

عندنا اليوم جهات ومؤسسات كثيرة مهتمة بالدراسات والبحوث ، أو مهتمة بالإنتاج العلمي ونشره ، أو مهتمة بقضايا الإصلاح والنهضة والتنمية ، أو مهتمة ببعض القضايا المصيرية والإستراتيجية والمنهجية ... وهذه الجهات والمؤسسات منها الحكومية ومنها الأهلية ، منها العامة المتعددة الاختصاصات ومنها المتخصصة .

فأَرشَدُ طريق لإنتاج (المؤلفات القيادية) التي أتحدث عنها ، هو أن تتولى أمرها مثل هذه المؤسسات ، وأن تقوم على رعايتها من البداية إلى النهاية . فأما البداية فهي الإعداد المدروس لفكرة المؤلَّف

أو المشروع العلمي ، انطلاقا من أهميته وأولويته ومسيس الحاجة إليه على صعيد الأمة ... وأما النهاية فهي التمكين له ؛ بالاحتفاء بإنجازه والتعريف به وبمضامينه ، وترجمته ونشره بجميع وسائل النشر المتاحة ... وبين البداية والنهاية ، أشكال عدة من الحضانة والرعاية .

على أن المؤلفات القيادية المنشودة لا بد وأن تتسم بسمات منهجية تجعلها تتجاوز الحدود والمستويات التي عادة ما تقف عندها الإنتاجات والمعالجات المتسمة بالطابع الفردي أو المذهبي . ومن هذه السمات الضرورية :

١ـ الإحاطة بالقضية المقصودة من جميع جوانبها المؤثرة فيها .

٢ـ النزاهة والتوازن والتحقيق والحسم .

٣ـ العمق والجرأة والمستوى الاجتهادي .

٤ـ الملاءمة والاستجابة لظروف الأمة وحاجاتها اليوم وغدا .

**وفيما يلي بعض القضايا والمجالات العلمية التي ما زالت تحتاج وتفتقر إلى مؤلفات قيادية جامعة للمواصفات المذكورة :**

١ـ كتاب جامع عن القرآن الكريم ، نصا ورسالة وفهما .

٢ـ كتاب جامع عن القضايا والإشكالات الأساسية المتعلقة بالسنة النبوية وفهمها والعمل بها .

٣ـ كتاب جامع للأحاديث النبوية المعتمدة ، مما لا نزاع في

صحته عند جمهور أهل الاختصاص . ويبقى المتنازع فيه في مظانه ، يطلبه ويرجع إليه من يريد من العلماء والدارسين والمحققين . بمعنى أن يكون عند المسلم والدارس للإسلام كتابان أساسيان : القرآن ، ثم كتاب واحد في السنة الصحيحة المعتمدة .

٤ــ كتاب جامع في العقيدة والتصورات العقدية الكبرى في الإسلام ومنهج معاجتها وتفعيلها .

٥ـ كتاب في تجديد أصول الفقه ومنهج التفكير الإسلامي .

٦ـ كتاب في قضية اللغة العربية وأهميتها ، والمخاطرِ والتحديات التي تواجهها ، وما يستتبع ذلك من آثار وانعكاسات ، وما يتطلبه من حلول ومعالجات .

٨ـ كتاب ـ أو أكثر ـ في المسألة التربوية التعليمية .

٩ــ كتاب ــ أو أكثر ــ في قضايا الحكم والسياسة والجهاد وعلاقات المسلمين بغيرهم .

١٠ـ كتاب عن تراثنا العلمي والفكري وتقويمه وكيفية التعامل معه .

١١ـ كتاب ــ أو أكثر ــ في التاريخ الإسلامي وتقويم مسيرته ومكانته .

١٢ــ كتاب استقصائي تحليلي في أسباب تخلف المسلمين وضعفهم ، قديما وحديثا .